أسيجة التمثيل وأنسجة التمثيل الثقافي المضاد– قراءة في رواية "كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك؟ لـعمارة لخوص

The Fences and Tissues in Counter-Representation: *How to Suckle from the Wolf Without Biting You* by Amara Lakhous as a Case Study

فتيحة عاشوري[1]*

جامعة الشاذلي بن جديد الطارف، الجزائر

تاريخ الاستلام : 2024/04/20 ؛ تاريخ القبول : 2024/06/28 ؛ تاريخ النشر : 2024/07/15

ملخص

تسعى ورقتنا البحثية إلى البحث في كيفية اشتغال أسيجة التمثيل، وتعرية الذئب المتوحش الكامن في الإنسان الغربي، من خلال تقصي أنسجة السّرد المقاوم لها في الإطاحة بالعنصرية الثقافية، والدعوة إلى معادلة ثقافية إنسانية، فكانت رواية "كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك" لعمارة لغوص إلى جانب الدراسات الفكرية آلية دفاعية مشروعة للحدّ من أشكال الهيمنة، وإنهاء أسطورة التمثيل والوصاية، فآثرنا أن تكون المقاربة النقدية الثقافية آلية لتقصي الأنساق الثقافية الغربية وكيفية اشتغالها في عالمي الحقيقة/ الواقع، والخيال/ السرد، من خلال طرحها لإشكاليات تتعلق بسؤال الأنا ومآلات الذات، وفي الوقت نفسه هي أسئلة أعادت قراءة الآخر من منطلق تعرية مقولاته المتمركزة حول هذه الذات، التي تنشد من خلال خطابها الثقافي المضاد تهشيم هذه المقولات، ومن ثمة فهي إشكالية تحاول استقراء كيفية تمظهر هذه الأسيجة الثقافية المضمرة المحاصرة لحدود الخطاب التمثيلي الثقافي المضاد، لمعرفة إلى أي مدى استطاع هذا الخطاب نسج مرافعة إدانة لهذا التمثيل الثقافي العنصري المتحيّز؟.

الكلمات المفتاحية: التمثيل الثقافي، التمثيل الثقافي المضاد، السّرد المقاوم، الرواية، عمارة لخوص.

Abstract

Our research paper seeks to investigate how the fences of representation work and expose the savage wolf latent in the Western man, by investigating the tissues of the narrative that resist it in prolonging cultural racism and calling for a humane cultural equation, so the novel *How to Suckle from the Wolf Without Biting* you by Amara Lakhous along with intellectual studies was a legitimate defense mechanism to limit the forms of domination and end the myth of representation and guardianship, we chose the cultural critical approach as a mechanism to investigate the Western cultural patterns and how they work In the worlds of truth/reality and fiction/narrative, by posing questions related to the question of the ego and the fate of the self, and at the same time they are questions that reread the other in terms of exposing its arguments centered on this self, which seeks through its counter-cultural discourse to smash these arguments, hence it is an issue that tries to extrapolate how these implicit cultural fences that surround the boundaries of the counter-cultural representational discourse appear, to see how far this discourse was able to weave an argument condemning this biased, racist cultural representation?

Keywords: Amara Lakhous' *How to Suckle from the Wolf Without Biting*, cultural representation, counter-cultural representation, narratives of resistance

*الكاتب: فتيحة عاشوري، البريد الإلكتروني: f.achouri@univ-eltarf.dz

Atras Journal/ 2024, published by the University of Saida , Dr. Moulay Tahar, Algeria
This is an Open Access Article under The CC BY-NC 4.0 license

مقدمة

إنّ من يمتلك السلطة يمتلك التاريخ والمعرفة مقولة قالها (نتشه) وتبناها الغرب الذي يمتلك المعرفة والقوة سلاحا لإحكام قبضته على الشعوب المستضعفة، تفعيلا لمبدأ تمركزه في مقابل دونية الشرق الذي اقترنت صورته المشوهة بالدراسات الثقافية الاستشراقية، التي أساءت تقديره و رمت به إلى هامش التاريخ من النفي والإقصاء، ونعتته بسوء التمثيل لنفسه وفرضت نفسها وصيًّا في إطار سياق ثقافي يقرّ بعجز الشرق، في مقابل نسق ثقافي متعال يمتلك مقومات الوصاية التي انطلقت فيها التمثيلات من موقع العنصرية الثقافية المتواطئة مع الأنظمة الثقافية الامبريالية.

ومن موقع سياقات التمثيل هذه كان لزاما على الطرف الآخر من خطاب مقاوم يتمثله في مستويات وأنساق مختلفة من المعرفة والفن، فوقع خيارنا في دراستنا هذه على رواية (كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك) لـ (عمارة لخوص) كونها نصا ثقافيا سرديا مضادا وآلية ثقافية مقاومة، واستراتيجية طباقية، الهدف منها هو البحث في الآليات السردية المضادة التي صاغها الكاتب للحفر في مضمر الوصاية ودوافعها، وكذا كيفية اشتغال أسيجتها التمثيلية، وتعرية أقنعة الذئب الرابض في عرينه، من خلال تقصي أنسجة السّرد المقاوم لها في الإطاحة بمقولات التمثيل، وكشف النقاب عن تمركزها المتحيّز لذاتها، ومن ثمة السعي لتقويضها، وفضح آليات اشتغالها الحالمة، المشدودة إلى مرجعيات سياسية، اجتماعية وثقافية، الرامية إلى رسم خارطة تثبيت التمركز والتمثيل بترجيح كفة الموازين لصالحها، وفي المقابل تسعى الكفة الأخرى إلى الإطاحة بهذا القسط في الموازين الثقافية من خلال البحث عن بدائل لصناعة معادلة ثقافية إنسانية.

من هنا أيضا جاء طرحنا لجملة من القضايا الإشكالية عن سؤال هذا الشرط التمثيلي الثقافي في محاصرته وتسييجه للهويات الثقافية المقاومة، وكذا للمنعكس الشرطي الثقافي في دفاعه عن حدود المعادلة الثقافية التمثيلية، لذلك ارتأينا بسط جملة من المساءلات التي ترنو إلى معرفة الإجابة عن سؤال ما هي الآليات التي تتمظهر بها الأسيجة الثقافية المضمرة المحاصرة لحدود النسيج الخطابي التمثيلي الثقافي المضاد؟، وإلى أي مدى استطاع هذا الخطاب المضاد سردية (عمارة لخوص) نسج مرافعة إدانة ضد العنصرية الثقافية المتحيّزة لذاتها؟، وهل يمكن اعتباره (الخطاب) –على غرار (حسن حنفي) في (مقدمته في الاستغراب)، و(إدوارد سعيد) في (الاستشراق)، و(الثقافة والامبريالية) وغيرها من الدراسات النظرية الفلسفية والثقافية– بمثابة (خطاب استغراب) جاء لتصوير وفهم الديناميات الثقافية بين الأنا والآخر، بين النصوص وبيئة منتجيها، وحمّل منتجيها مسؤولية تعرية العماء الثقافي الغربي ومدّه اللاّمحدود واللاّ مشروط في بسط سلطته على كل ما هو مخالف ومقاوم؟.

أما عن الدراسات النقدية السابقة التي طرحت الأدب بأجناسه المختلفة موضوعا للدراسات الثقافية، ففي هذا الصدد يمكننا أن نشير إلى تلك التي قدمها (إدريس الخضراوي) في كتابه (الأدب موضوعا للدراسات الثقافية) التي قارب فيها لنقد (المركز) وفلسفة تمثيلاته وتمظهرها في المتخيل السردي العربي، وتنوع حفرياته المضمرة ورؤى منتجيه، كل بحسب الثقافة المنتجة.

وأمّا عن الطروحات النقدية الثقافية لسردية (عمارة لخوص) على كثرتها، فإنّ كل دراسة من هذه الدراسات لها منحاها الخاص بها وتوجهها المستقل عن الآخر، ونحن في دراستنا هذه لم نغفل الاطّلاع على هذه الدراسات السابقة المختلفة عن طرحنا لهذه الرواية في ثوب جديد ومختلف، ذلك أننا تناولناها من وجهة نظر موضوعاتية (نقدية ثقافية) وفنية، شكل (الاستغراب) فيها –باعتباره رد فعل معاكس، مقاوم لـ (الاستشراق) ومخالف له في الاتجاه– مرافعة إدانة ضد كل أشكال

التمثيل وأسيجته المحاصرة لأنسجة الخطابات المقاومة(خطاب الاستغراب)، وكيف شكلت الرواية باعتبارها خطابا فنيا ذلك المعادل الموضوعي –من خلال أنسجتها الدفاعية– لذلك الخطاب الاستغرابي المقاوم في الدفاع عن المهمشين؟، ثمّ أنّ الكاتب نفسه –من وجهة نظرنا–كان مختلفا ليس فقط لكونه المهاجر الذي حمل عاتقه نقل هموم المهمشين في ديار الغربة، وإنّما لكونه الجزائري الوحيد الذي نقل هذه النماذج من التمثيل بلغة الآخر، بلغة روما نفسها، المرجع الأساسي لبروز التمثيلات الغربية، وهذا في حد ذاته ضرب من ضروب الصمود والمواجهة لهذا الآخر، قلّ ما تكون الكتابة بها عن مثل هذه الطروحات المفككة لحدود التجاور، المبرزة للذات ثقافة تمثيلية موازية، ذلك أن اللغة هي الحاضن للخطابات التي تتمثلها الشخوص في ثقافاتها وهوياتها بمركباتها الهجينة.

التمثيل الثقافي والتمثيل الثقافي المضاد

لم يقف الشرق حيال هذه الإدانات وهذا التمثيل الثقافي العنصري، وإنّما نهضت دراسات فكرية معرفية مقاومة لفضح آليات اشتغال الخطاب الغربي الحالم، وذلك بتقويض مقولاته السلطوية التي جثمت عليه بكل ثقلها، فجاءت قراءة كل من (إدوارد سعيد) في كتابه (الاستشراق) و(حسن حنفي) في مؤلفه (مقدمة في علم الاستغراب) مساءلة لهذه الخطابات، وحفر في بنيتها الثقافية والإيديولوجية، ودعوة للتخلّص من وهم المركزية الغربية والقابلية للوصاية واتّخاذها مصدراً للمعرفة.

ولئن كانت ما بعد الاستعمارية تعرية للخطاب الاستعماري، فإنّ السرد ممثلا في الرواية يعتبر أحد "الأشكال الأدبية الرئيسية حداثة زمنيا، وإنّ نشوءها هو الأكثر قابلية للتأريخ، وحدوثها هو الأكثر غربية، ونسقها المعياري للسلطة الاجتماعية هو الأكثر بَنينة؛ ولقد حصّنت الرواية والامبريالية إحداهما الأخرى إلى درجة عالية يستحيل معها، تبعا لما أطرحه، قراءة إحداهما دون التعامل بطريقة ما مع الأخرى" (ادوارد، 2004، ص 139)، ذلك أنّه الجنس الأدبي الذي التبس بالخطاب الثقافي والإيديولوجي الداعم لأجندات غربية لتمرير سياسات استعمارية، وتشويه ثقافات الشّعوب المستعمَرة وتغييبها.

انطلاقا من الدور الذي خُوِل للرواية باعتبارها آلية استعمارية امبريالية، وسياقا غربيا طُوِع لتمرير نزعات خطابية تدّعي تفوّق الرجل الأوربي الأبيض وتمركزه حول الثقافة، التاريخ والزمن الكوني، فإنّ الرواية الما بعد استعمارية نص ثقافي جاء لخلخلة المنظومة التمثيلية الاستعمارية، وتعرية "الممارسات الاستعمارية المادية والإبداعية ... للتدليل على منهج تحويلي في التفكير يتحدى ويتجاوز المنهج الاستشراقي أو الاستعماري المستخدم في فهم هذا العالم" (ماكلويد و آخرون، 2020، ص 33–34)، تسعى لكشف المناهج الاستعمارية في التمثيل والوصاية، وتبحث في تفكيك البنى والتمثيلات السردية للاستعمار والتخلّص منه، تقاوم الهجرة، المنفى والتشظي، وتتيح وسائل الاستجواب النقدي المقوّض لتصورات الآخر وللصورة التي رسمها لنفسه في أدبه، وهي أيضا استجابة لنداءات المهمشين ورفع الصمت والغبن عنهم وإعادة الاعتبار لهوياتهم الثقافية المهمّشة، وذلك بنزع الشرعية على (التمثيل الثقافي) الغربي من خلال تفكيك مقولاته المتمركزة حول الشرق، وإنتاج ثقافة سردية موازية، مقاومة ومضادّة للمد الامبريالي ليس بالوقوف عند جمالياتها، وإنّما بالحفر في البنى المتوارية خلفها وتقديم (نقد طباقي) للفكر الغربي الاستعماري، سعيا لتعرية الإنسان الذئب الكامن فيه.

تقدّم رواية (كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك) لـ (عمارة لغوص) إلى جانب الدراسات الفكرية المضادة آلية دفاعية مشروعة للحدّ من أشكال الهيمنة وإنهاء أسطورة التمثيل والوصاية، وكذا الحفر في كيفية اشتغال أسيجة التمثيل

وأنسجة التوحش، وتقصي أنساق السرد المقاوم لها من منطلق "اجتراح فهم جديد بالرواية من حيث هي ممارسة تخييلية وثقافية" (الخضراوي، 2012، ص 42) في الإطاحة بالتحيز الثقافي والدعوة لمعادلة ثقافية إنسانية، من منطلق "إعادة تحديد اللّب وتجرأ الهوامش على إعادة تشكيل المركز...من خلال التدخل في لغة السلطة وكشف انشطارها وإعادة إنتاج تلك اللغة في حالة متبدلة ..، على نحو يطيح بحسابات المتمكّنين ويتيح لغير المتمكّنين أن يعرفوا الاستراتيجيات التي يضطهدون من خلالها وأن يستخدموا تلك المعرفة في بناء مقاومة" (هومي.ك، 2006، ص 10-13)، سعيا لافتكاك اعتراف المراكز بمشروعية الهوامش في الوجود، أو في إطار من المعادلة الموضوعاتية المهشمة لتلك الثنائيات المخاتلة (الشرق، الغرب)، (الذات، الآخر)...، المقوّضة لأسّسها، الداعمة لديناميكيات السلطة وإخضاع الهامش.

ملخص الرواية

شكّل موضوع الهجرة سمة محورية ضمن موضوعات أخرى بارزة في هذه السردية، صوّر من خلالها الروائي حياة المهاجرين القادمين من مختلف أنحاء العالم الثالث إلى إيطاليا، رسم في إطارها معاناة هذه الفئة هوياتيا، ثقافيا وحضاريا في محاضن الآخر وفضاءاته التي تتسم بالهجنة.

تدور أحداث الرواية في عمارة يقطنها مجموعة من المهاجرين من مختلف الجنسيات والهويات، هاجروا إلى روما بحثا عن الأمن والسّلام، تحدث جريمة قتل شاب إيطالي داخل مصعد المبنى تزامنا مع اختفاء المهاجر الجزائري أحمد المدعو أميدو الذي اتّهم بارتكابها بسبب خلافاته مع القتيل.

هذا وقد شكّل مصعد المبنى سمة أساسية ورمزية خصّها الكاتب بنوع من الأهمية البالغة، ذلك أنّه الرباط أو القاسم المشترك الجامع بين أطياف المهاجرين، أين تلتقي هذه الفئة التي رصد الروائي جوانبها الخفية الكامنة في النفس؛ فحيثيات الجريمة تخفي وراءها واقع المهاجرين في الغرب والصراع بين الهويات والحضارات القائم على سوء الفهم.

ويقف الكاتب على امتداد الصفحات الورقية عند شخصية أميدو الذي نعتقد أنها تمثل شخصية الكاتب نفسه الذي مثّل صوت المهاجرين في روما، فهو المهاجر الوحيد الذي خبر تفاصيل الحياة فيها، وقف وعاين الحقائق الذاتية لهذه الفئة القاطنة على مستوى هذه العمارة، فجاءت هذه الحقائق رديف تساؤلات حول الهجرة، الهوية، حياة المهاجرين، وعن الممارسات العنصرية وكذا تحديد طبيعة العلاقة العدائية بين الأنا والآخر.

تساؤلات أميدو وردت في شكل عواءات وثيقة الصّلة بيومياته واعترافاته التي صوّر لنا من خلالها الوجه الآخر للحقيقة، التي رأينا وجهها الأول في استجوابات الشخصيات، التي صورتها لنا من منظور مختلف ومتمايز ليضعنا الكاتب في النهاية في مواجهة وجهي الحقيقة الواحدة.

أسيجة التمثيل وأنسجة التوحش

لطالما تكرّست لدى الغرب تلك النزعة الاستعلائية المتمركزة حول الذّات التي تعزّزت بداية مع (هيجل) الذي انتصر للحضارة الغربية على حساب الثّقافة الشرّقية من منطلق التّاريخ العام؛ ذلك أنّ "التّاريخ الكوني عنده يضع الغرب على رأس التّطور، إنّه تاريخ العقل الذي تمثله الحضارة الغربية، تاريخ الكون يمتد من الشّرق إلى الغرب لأنّ أوروبا هي حقا النّهاية وآسيا هي بداية هذا التّاريخ" (هنتش، 2006، ص 278)، الذي يتمثّله الغرب في مقابل إقصاء الشّرق الذي مثّل في نظره طفولة التاريخ.

من هذا المنطلق تأتي رواية (عمارة لخوص) (كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك) لتصور أشكال التمثيل الثقافي الغربي كمقولة ثقافية، وسرد نقدي ثقافي مقاوم، تكمن قيمته في كونه الفضاء الأرحب والخصب، وحلقة عبور منفتحة على المتعدد من المناهج إلى الأنساق المشكلة للنص، تبرز وظيفته المعرفية في "التعرّف على أشكال الصور التي تحملها النصوص الروائية، خاصة وأنّها تنهض بتأدية دور توسطي يتمثل في إنتاج الدلالات والرموز حول العالم، وما يسكنه من أشياء وكائنات... ينطوي التمثيل السردي فيها على دلالات ثقافية متعددة تتجاوز حدود الإدراك المباشر، لتستوعب دلالات أخرى لا يمكن التوصل إليها إلاّ عبر الحفر والتفكيك، خاصّة وأنّ الروائي ينطلق من وعي خاص بالزمان والمكان" (الخضراوي، 2012، ص 120)، وملزم بالكشف عن الجدل القائم بين الهويات والحضارات، وفورة الإنسان وقلقه في ظل عالم تتنازعه الخطابات الثقافية التي تبدي جوهرا وتخفي أسرارا وتحتاج من المتلقي الحفر في كنهها، لذلك فالسردية التي بين أيدينا "تتناسب بالضرورة مع الإطار المكاني والزماني...وتسعى إلى فرض نفسها والهروب من سطوة الخطابات المهيمنة...كما أنّ الخطابات والخطابات المضادة ليست مجرد آراء أو آراء متباينة، ولكنها آليات مختلفة تماما لرؤية الأشياء والعالم، ومن تقاطعها تنشأ الخلافات والمشاحنات التي تكشف بدورها عن رؤى متفردة للعالم" (Hamdi, 2021, pp. 26–31)، وللأنا والآخر.

تتجلى سطوة الغرب المنتهك لإنسانية الإنسان من خلال روما صورة أوربا والقلب النابض لها، وفي الوقت نفسه فإنها تشكّل الفضاء الحلم للكثير من المهاجرين وللشخوص الورقية، روما الفردوس المفقود في بلدانهم، والذي في إطاره تتحقق الأمنيات بعيدا عن المشاحنات، المناحرات، العصبيات والجغرافيا التي يتمثّل فيها السلام، الأمن والتعايش المشترك بعيدا عن التهميش والاقصاء، روما مركز أوربا التي تختزل العالم بثقافاته، إيديولوجياته وتوجهاته على اختلافها...هكذا كان يُخيّل لكل شخصية من شخصيات الرواية أنّه سوف يتدثر وينام في محاضن فَرْوِها الناعم ويعيش أحلام اليقظة، غير أنّ روما قابعة في الوجه الخفي المتواري خلف أنيابها والتي لم تدرك لدى كل شخص من الشخوص الورقية إلاّ بعد معايشة صدامية مع الآخر الذي أوهمهم بشعارات إنسانية براقة، يتحقّق معها السّلام، العدالة، المساواة والديمقراطية؛ فالحقيقة المفارقة كالسرد المفارق يكشف مغالطات المتوقع والمأمول من التمثيلات الثقافية الغربية والسردية، أفضت إلى وعي فكري بحقيقة المركب التمثيلي؛

"روما! المدينة الخالدة! روما الجميلة! روما الحب! أنا آسف! أنا لا أرى روما بعين السائح الذي يأتي إليها أسبوعا أو أسبوعين يطوف على ساحة نافونا وساحة دي سبانيا وفونتنا دي تريفي، يلتقط بعض الصور التذكارية، يأكل البيتزا والسباغيتي ثم يعود إلى بلده. أنا لا أعيش في جنة السياح وإنما في جحيم الفوضى...روما مدينة جنوبية .. أهل روما كسالى...هذه هي الحقيقة التي لا يمكن المفر منها: إنّها لا تساوي شيئا على الإطلاق" (لخوص، 2006، ص 84)

هكذا يقول أنطونيو ماريني، الذي تيقن مثل غيره من المهاجرين أن روما لم تكن كتلك الصورة التي رسمها في مخيلته؛ ذلك الفضاء الذي يمثل المركز ويحتضن الكيانات المهمشة.

لقد صار بإمكان كلّ واحد منهم إدراك أنّ روما تتخفى خلف المساحيق، تكشر عن أنيابها إذا ما تعلّق الأمر بأبنائها، وتغض الطرف عن المهاجرين المهمشين الذين أتوا من كلّ حدب وصوب ليتوسدوا فرو الذئبة، ولكن وجدوا أنفسهم:

"يتوسدون زجاجات البيرة والخمر في حديقة ساحة فيتوريو، لا يكفون عن العواء الحزين لأنّ عضة الذئبة قاسية مؤلمة" (لخوص، 2006، ص 137)

هذه الذئبة التي تمارس مكرها على هذه الفئة، تستغل عرقهم في إطار من العنصرية الهمجية وانتهاك للحقوق تحت مسمى:

"إيطاليا للإيطاليين .." (لخوص، 2006، ص 22)

هي إذن روما وجه الحضارة الغربية الذي تفوح منه رائحة الذئبة التي تتوكأ على سواعد المهمشين في تمثيلها لهم من منطلق فكرة العجز التي ألحقتها بهم "فهم لا يستطيعون تمثيل أنفسهم ولابد أن يمثلهم أحد" (إدورد، 2006، ص 70) طالما أنّها السيّد في امتلاك الفضاء، فهي ترى أحقية امتلاك كلّ من يتوسّدها بما فيه الذين يتوسدون زجاجات البيرة والخمر.

لم تكفّ روما الذئبة عن التذكير بهذا التمثيل، إنّما تضيّق في كلّ صرخة وبأعلى صوتها الخناق على المهاجرين، وتنعتهم بالدونية وتفرض عليهم وصايا وقرارت جديدة؛

"لقد حان الأوان للتخلي عن الموقف الساذج والمتخلف الذي يقول إنّ الكلاب تصلح للحراسة فقط!" (لخوص، 2006، ص 66)،

ففي كل مرة تعيد تجديد الأدوار بما يليق في نظرها من تمثيل وسلطة، تمارس شتى وسائل الترهيب للهيمنة على الأقليات من منطلق موقعهم على الحواف، غير أنّ هذا التمثيل المزعوم الذي تتغنى به وجد أصواتا مضادة معادية لتلك الشعارات الزائفة التي تختفي حقيقة الغرب خلفها:

"أسأل بصوت مرتفع من هذا العش القذر الذي تتصاعد فيه الروائح التي تزكم الأنوف: من يملك الحقيقة؟ بل ماهي الحقيقة؟ هل تقال الحقيقة باللسان؟ قال بارويز حقيقته مكمم الفم، خاط فمه وتكلم بصمته!.. اليوم زاد كرهي للحقيقة ونما عشقي للعواء. سأعوي بقية الليل في هذا العش الضيّق وأنا أعرف أن عوائي صيحة في واد لن يسمعه أحد غيري. سأودع في هذه المسجلة الصغيرة عوائي المتقطّع ثمّ أعزي نفسي بسماعة أووووووووووووووو..." (لخوص، 2006، ص 30)

هذه هي روما صورة الغرب الامبريالي الذي وإن امتلك الثقافة المادية، فإنّه قاصر عن امتلاك التمثيل الثقافي للكيانات والجماعات بمختلف أطيافها الإيديولوجية والدينية و.....

أنساق التمثيل المضاد في النص السردي المقاوم

لئن كانت أنسجة التمثيل السردي موازية من حيث وظيفتها إلى أسيجة التمثيل الثقافي التي كرّست صورة الغربي المتحضر في مقابل المهاجر المتوحش، فعزّزت بذلك أنظمة الغرب الإيديولوجية القائمة على فكرة التمثيل المركزي الذي يمارس هيمنة على الآخر، ويقرؤه من منظورات أيديولوجية تقارب له من منطلق موقعه على الحواف، فإنّ النّص السردي المقاوم شكّل معادلاً موضوعيا للتمثيلات المضادة و(قراءة طباقية) "في الرّد على الآخر، وفي إعادة تمثيل صور الذات وتواريخها خارج استهامات الخيال الكولونيالي التي تحكّمت في بنية ورؤى السرد الإمبراطوري" (بوعزة، 2014، ص

57)، ولعلّ سردية (عمارة لخوص) التي تبنّت موضوع الهجرة بما يتضمنه من تمثيلات هجينة من أهمّ النصوص المضادة التي أعادت تشكيل المركز من منطلق سوء التمثيل، ذلك "أنّ كل تمثيل هو سوء تمثيل بشكل أو بآخر وتصوير الغرب للشرق كان ومازال بعيدا عن الموضوعية والنزاهة" (إدوارد، 2008، ص 202).

من هنا تتجلى المقاومة السردية وعيا طباقيا لتعرية الآخر عبر أنساق ثقافية تحفر وتتقصى ثم تستقرئ واقع المهاجرين في الدول الأوربية، وتسلط الضوء على تلك الممارسات العنصرية التي تعكس صورة الأنا المتعالية المتمركزة حول فئة المهاجرين المهمشين، الذين تتراءى لها دونية موقعهم من منطلق السلطة التي شكلته؛ فباروز صديق أميدو الذي منع من امتهان مهنة إطعام الحمام كان بدعوى تحويل ساحة تسانتا ماريا ماجوري إلى مزبلة:

"أنا أعشق الحمام وأجد متعة كبيرة في إطعامه، منظر الالتفاف لحمام حولي يثير إعجاب السياح فيبادرون إلى التقاط الصور التذكرة، فأنا أساعد في إنعاش قطاع السياحة في روما، لكن هذا الأمر لم يشفع لي، إذ حاولت الشرطة مرارا منعي من الاقتراب من الحمام، بذلت كل جهدي لشرح لهم أن الحمام هو شعار السلام في كل الأعراف، بل هو شعار السلام في الأمم المتحدة ... لقد عاملوني معاملة سيئة دون أن أقترف أي ذنب، بل ذهبوا إلى حد إهانتي بقولهم: هل تريد أن تحول روما إلى مزبلة؟ أذهب إلى بلدك وافعل ماشئت" (لخوص، 2006، ص 24)

جاء سوء الفهم الذي غلّف العلاقة بين الأنا والآخر ليؤكد الممارسات العنصرية والتجاوزات المتعصبة التي يتلقاها الأنا في فضاء الآخر؛ فباروز الذي مُنِع من إطعام الحمام هو في الحقيقة منع من ممارسة فعل الحرية التي تعتبر في عرف الآخر بند من بنوده، في الوقت الذي يحاول الغرب قمعها من خلال باروز الذي حاول تبرير ممارساته استنادا إلى شعارات الغرب نفسه، شعار السلام الذي نادت به كل هيئات السلام الدولية بكل أطيافها وإيديولوجياتها، إلاّ أنّها – معه– فُهمت وفق أطر ومفاهيم القلب والإبدال على الطريقة النشوية، وهنا فقط يقف باروز على منعطفات الآخر والتواءاته مستشعرا ومفككا نزعات الاستعلاء المغلقة بمقولات السلطة، الهيمنة والتعصب للذات التي قادت الآخر إلى ممارسات عنصرية على الكيانات التي تقع على الحواف.

التجرؤ على رموز السلام جريمة ترتكب في حق الإنسانية، نلمسها في تلك القطيعة الثقافية والحضارية وذلك الإقصاء المتعمد الرافض للتعايش والتسامح بين الأنا والآخر، تتعداه إلى خنق الحريات بتسييج الكيانات ضمن دوائر مغلقة، محاصرة في أطر محدودة خيطت وفق آليات لا تعترف بحق الآخر في الاختلاف؛ فروما التي تنادي بالسلام تنكشف حقيقتها في الوقت الذي اغتالت فيه السلام، سلام هوية الأقليات المهاجرة التي عاشت عذابات وآلام الآخر الذي تميز بالتزمت والعنصرية لتتحول روما إلى رمز من رموز التوحش؛

"أليست الذئبة هي رمز روما؟ انا لا أثق ابدا في أبناء الذئبة، لأنهم حيوانات مفترسة، موحشة. إن الحيلة الخبيثة هي وسيلتهم المفضلة في استغلال عرق الآخرين" (لخوص، 2006، ص 85).

ويتعدد السّرد بتعدّد الأصوات السّردية مشكلا هجنة سردية تحيل على هويات هجينة متوترة، تحاول أن تجد لها مكانا في فضاء الآخر المختلف، قاتلة بالنسبة للآخر، لكنها بالنسبة لأميدو – الذي يمثل القاسم المشترك بينها – هويات مشروعة

تمتلك أحقية البقاء وإن كانت في فضاء الآخر المخالف، تسعى إلى خلق تقاطعات ثقافية وفكرية وحضارية بينها تحد من كونها هويات متوترة، قلقة وقاتلة.

من هنا جاءت هذه السردية صورة طباقية لقراءة الآخر بعين الأنا، يرنو من خلالها الكاتب إلى تعرية أنساق التمثيل وفضح زيفها الحضاري ودعاويها اللاإنسانية وتجاوزاتها غير الأخلاقية تجاه الشعوب المستضعفة والثقافات المهمشة.

خاتمة

مكنت المقاربة النقدية الثقافية لأسيجة التمثيل وأنسجته المضادة في رواية (عمارة لخوص) (كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك؟) من استخلاص جملة من النتائج، يمكن حصرها في ما يلي:

– إنّ الحديث عن التمثيل السردي المقاوم أو المضاد باعتباره (قراءة ثقافية طباقية) منظور إليه على أنه تمثيل لا يمتلك المقومات التاريخية والثقافية والحضارية لتمثيل نفسه من منطلق أن التمثيل الثقافي يستدعي الحديث عن المركز، القوة والهيمنة، كما يستدعي الحديث عن التمثيل السردي باعتباره دعامة رمزية تتشكل داخل النص أبنية معادلة تطمح إلى تعرية كافة أشكال الثقافة العنصرية، وفضح آليات اشتغالها داخل النصوص.

– مثلت رواية (كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك) نصا ثقافيا مقاوما، وتمثيلا سرديا معاديا لأنساق الهيمنة الامبريالية وكافة أشكال العنصرية التي تمارس ضد المهاجرين الذين دفعتهم الظروف إلى البحث عن الألفة، وتجاوز فكرة اللاعيش المشترك والعصبيات اللغوية والفكرية والثقافية واللاحوار، غير أن فضاء الآخر، فضاء التمثيل المزعوم الذي من المفترض أن يحتضن كل ماهو إنساني ويدعمه، يتخفى خلف شعارات واهية هشة، تكرس لمبدا التعصب للذات المشدودة إلى التعالي في مقابل انصياع الآخر ودونيته.

– صورت سردية (لخوص) صراع المركز (روما) والهامش (المغتربين)، وما ينجر عنهما من صراع للحضارات، الثقافات، الأيديولوجيات والهويات ومن موقع عدم التكافؤ في التوازن بينهما.

– صراع الخطابات في الرواية حاضر بقوة، لمسناه في تمايز اللغات واختلافها بين ألسنة فئة المهاجرين، إلاّ أنّ السمة الأساسية في هذا الاختلاف تلك اللحمة على مستوى هذه الخطابات قياسات إلى خطاب الآخر (روما) الذي كرّس للتفرقة العنصرية وتعالي الذات على حساب دونية الأنا (المغتربين).

– استطاعت سردية (عمارة لخوص) أن تعاين تلك السياجات (المحاصرات) الثقافية الغربية من خلال تعرية تلك الانتهاكات التي يمارسها الآخر ضد المغتربين، ثمّ من خلال ردود أفعالهم، إن على مستوى النسيج الفكري والثقافي المضاد، أو على مستوى الأنسجة اللّغوية التي تمثلت صورة طباقية وتمثيلا معادلا، أبانت عن نزعة استغرابية تطمح لتمثيل ذواتها بنفسها بإلجام عواءات الآخر.

لمحة حول الكاتب

الدكتورة: **فتيحة عاشوري**: أستاذ محاضر أ/ جامعة الشاذلي بن جديد/ الطارف. الشعبة: أدب عام ومقارن/ التخصص: أدب عالمي. الملتقيات: أكثر من ثلاثين ملتقى...المقالات: أكثر من عشر مقالات. عضو في مخبر التراث والدراسات اللسانية، والتكوين في الدكتواة . محكم في مجلات مصنفة، كما أشرفت على عديد المذكرات والرسائل وأطروحتين. شغلت نصب نائب رئيس القسم المكلف بالبيداغوجيا ...

رقم الأوركيد **Orcid**:

0009-0009-1662-2609

المراجع

إدريس الخضراوي، (2012). الرواية العربية وأسئلة ما بعد الاستعمار، ط1، دار رؤية للنشر.

تيري هنتش، (2006). الشرق الخيالي ورؤية الآخر، ط1، دار المدى للطباعة والنشر والتوزيع.

جون ماكليود، (2020). نظرية ما بعد الاستعمار والرواية، ط1، مؤسسة بيان للترجمة والنشر والتوزيع.

سعيد إدوارد، (2004). الثقافة والامبريالية، ط4، دار الآداب

سعيد إدوارد، (2006). الاستشراق: المفاهيم الغربية للشرق، ط1، دار رؤية للنشر.

سعيد إدوارد، (2008). السلطة والسياسة والثقافة، ط1، دار الآداب.

عمارة لخوص، (2006). كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك؟، ط2، منشورات الاختلاف.

محمد بوعزة، (2014). سرديات ثقافية: من سياسات الهوية إلى سياسات الاختلاف، ط1، دار الأمان.

هومي.ك. بابا، (2006). موقع الثقافة، ط1، المركز الثقافي العربي.

المراجع باللغة الأجنبية

Hamdi, I.(2021). Contre- discours sociopolitique dans le roman de Mourad Djrnel « Les Sens Interdits ». *Revue ATRAS*, *2*(2), 26-31.

الإستشهاد بهذا المقال حسب أسلوب APA :

عاشوري فتيحة. (2024). أسيجة التمثيل و أنسجة التمثيل الثقافي المضاد- قراءة في رواية 'كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك؟ لـعمارة لخوص. *مجلة أطراس*، *5*(2)، 354-362